الدين بين الثبات والتغيّر
-إشكاليّة وقوع التغيّر في الدين-

إبراهيم محمد حاتم بالدي[1]

مُستَخلَص:

من الأسئلة الملحّة التي يطرحها الإنسان على الدين: هل الدين قابل للتغيّر والتبدّل أم أنّه ثابت أصيل واقعيّ لا يطرأ عليه التغيّر؟ ويُتصوّر وقوع التغيّر في الدين على ثلاثة أشكال: التغيّر في أصول الدين فقط، والتغيّر في فروع الدين فقط، والتغيّر في الأصول والفروع معًا. وعلى فرض وقوع هذا التغيّر، فمنشأه إمّا أن يكون ذاتيًّا، أو عرضيًّا، أو ذاتيًّا وعرضيًّا. وقد ذُكِرَت نظريّات عدّة في منشأ الدين والتديّن؛ منها: الخوف من الموت والقوى الطبيعيّة القاهرة، ومنها مزعومة أنّ الدين أفيون الشعوب، ومنها الجهل بعلل الظواهر الطبيعيّة، وعدم قدرة الإنسان على تفسيرها في الأزمنة الماضية تفسيرًا علميًّا. إذا صحّت هذه النظريّات فإنّ وقوع التغيّر في الدين أمر حتميّ، والنتيجة التي تترتّب على ذلك عدم واقعيّة الدين وأصالته. والحقّ أنّ الدين وظاهرة التديّن غريزة فطريّة كامنة في حقيقة الخلقة الإنسانيّة، وأنّ حاجة الإنسان إلى الدين في وجوده الروحي؛ كحاجته إلى الأكسجين في وجوده المادّيّ. وتترتّب على هذه الحقيقة أصالة الدين وواقعيّة التديّن، واستحالة وقوع التغيّر في الدين.

(1) طالب في مرحلة الدكتوراه في جامعة المصطفى ﷺ العالميّة، من غينيا كوناكري.

كلمات مفتاحيّة:
أصالة الدين، تغيّر الدين، ثبات الدين، فطريّة الدين، نشأة الدين، نشأة التديّن.

مقدّمة:

تعتبر قضيّة الدين من أكبر القضايا التي واكبت الحياة الإنسانيّة على وجه الكرة الأرضيّة. وتدلّ الوقائع والحوادث التاريخيّة التي شهدتها مراحل الحياة الإنسانيّة والوجود البشريّ أنّه لم يشهد تاريخ الإنسان مرحلة من مراحل حياته كانت خالية عن قضيّة الدين وفكرة الإيمان والطاعة.

ولعلّنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ قضيّة الدين والعقيدة الدينيّة تُعدّ القضيّة الأولى التي شغلت الفكر الإنسانيّ، وقد تفاؤل الإنسان مع القضيّة الدينيّة منذ اللحظات الأولى من وجوده.

هذا وترجع كثير من التحوّلات والتطوّرات الحياتية التي شهدها تاريخ البشريّة إلى الدين. وأكبر دليل وشاهد على تأثير القضيّة الدينيّة في تحوّلات الحياة البشريّة: التحوّل الفكريّ والثقافيّ والاجتماعيّ والسياسيّ والاستراتيجيّ الذي شهده أهل شبه الجزيرة العربيّة وضواحيها، بل العالم أجمع بعد ظهور آخر الأنبياء والمرسلين ﷺ في مكّة المكرّمة قبل ألف وأربع مائة سنة، والذي كانت رسالته الدينيّة خاتمة الرسالات والشرائع السماويّة، وكان دينه خاتم الأديان السماويّة.

أولًا: مفهوم الدين:

الدين لغةً: اسم مصدر من فعل دان يدين دن، ومصدره الديانة، واستعملت الكلمة لغةً في معانٍ عدّة؛ منها:

1 -التعبّد[1].

2 -الخضوع والتذلل[2].

(1) انظر: الفيومي، أحمد بن محمد: المصباح المنير، تحقيق: عبد العظيم الشناوي، ط2، القاهرة، دار المعارف، ص205.

(2) انظر: مجموعة من المؤلّفين: المعجم الوسيط، ط2، بيروت، دار احياء التراث العربيّ، 1392هـ.ق، ج2، ص307.

3 - الطاعة[1].

4 -الجزاء[2].

وأمّا اصطلاحًا: فقد تنوّعت الأفكار في حقيقة الدين ومنشأه إلى درجة يرى بعض الباحثين أنّ كلمة (الدين) على الرغم من كونها من أكثر الكلمات والمصطلحات تداولًا، غير أنّه اختُلِف في معناها؛ بحيث يصعب العثور على تعريف جامع لها[3].

ومن المعاني التي ذُكرت لمفهوم الدين:

1. الدين حالة نفسيّة (سيكولوجيّة) خاصّة بالمتديّن: فهناك من اعتبر حقيقة الدين تجربة روحيّة شخصيّة ذات أصول سيكولوجيّة؛ كالفيلسوف الأمريكي (وليام جيمس)؛ حيث عرّفه بما يلي: «الدين هو الأحاسيس والأعمال، وتجارب البشر في العزلة حينما يعلمون أنّهم مرتبطون بالشيء الذي يعتبرونه إلهًا»[4].
2. الدين قضيّة اجتماعيّة: «الدين مجموعة من الاعتقادات، والممارسات والمؤسّسات الاجتماعيّة التي طوّرها البشر في مجتمعات مختلفة»[5].
3. الدين مجموعة التزامات مقيّدة لحرّيّة الإنسان: «الدين مجموعة شكوك تعيق ممارسة الأعمال بحرّيّة»[6].
4. الدين حالة عاطفيّة: «الدين هو القيم الأخلاقيّة [التي] تعالت وأُشعلت بالمشاعر»[7].

(1) انظر: الراغب الإصفهاني، الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، 1428هـ.ق/ 2008م، ص182.

(2) انظر: م.ن، ص.ن.

(3) انظر: يوسفيان، حسن: دراسات في علم الكلام الجديد، ترجمة: محمد حسن زراقط، ط1، بيروت، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، 2016م، ص22؛ الماجدي، الأديان: تاريخه، مناهجه، مستقبله، ط1، المملكة المغربيّة، مؤسّسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2016م، ص27.

(4) هيك، جون: مقدّمة في فلسفة الدين، ترجمة: طارق عسيلي، ص1-2.

(5) م.ن.

(6) م.ن

(7) م.ن

ويلاحظ على هذه التعريفات:

أنّها تنفي عن الدين صفة الأصالة والواقعيّة. ومن النتائج التي تترتّب على ذلك: إمكان وقوع التغيّر والتبدّل في الدين؛ لأنّ الحالات السيكولوجيّة النفسيّة والاجتماعيّة والعاطفيّة ليست ثابتة على حالة واحدة.

في حين أنّ الضابط والمعيار الذي ينبغي وضعه في تعريف الدين -بناء على واقعيّته- يجب أن يشتمل على ثلاثة قيود رئيسة تُعدّ اللبنات الجوهريّة للدين؛ وهي:

- الاعتقاد بوجود خالق للكون

- مطابقة هذا الاعتقاد للواقع

- الأعمال والسلوكيّات الملائمة لهذا الاعتقاد.

ومن هنا يمكننا تصنيف التعريفات لمصطلح (الدين) إلى صنفين وعلى أساس اتّجاهين اثنين؛ هما:

الأوّل: الاتّجاه الذي لا يبني فكره الدينيّ ومنظومته العقديّة على الاعتقاد بوجود خالق للكون والإنسان.

الثاني: الاتّجاه الذي يبني فكره الدينيّ ومنظومته العقديّة على الاعتقاد بوجود خالق للكون.

ثمّ إنّه يمكن أيضًا تصنيف الاتّجاه الثاني إلى صنفين اثنين؛ هما:

- الاتّجاه الذي يعتقد بتعدّد الآلهة والخالقين وعلى أقلّ تقدير وجود إلهين: إله للخير وإله للشرّ.

- الاتّجاه الذي يعتقد بوحدة خالق الكون.

وإذا ما أخذنا في تعريف الدين وحقيقته قيد الاعتقاد بوجود خالق الكون ووحدته سنرفع اليد عن كلّ التعريفات القائمة على أساس الاتّجاه

الأوّل، بل سنرفع اليد عن التعريفات القائمة على أساس الإيمان بوجود الخالق مع الاعتقاد بتعدّده.

ويترتّب على إدخال المعيار والضابط المذكور في تعريف الدين الحكم ببطلان جميع التعاريف السابقة.

والسؤال المطروح هنا: هل لدينا تعريفات للدين تشتمل على الضابط والمعيار الذي حدّدناه؛ بحيث تحتوي هذه التعريفات على تلك القيود الثلاثة؟

نستعرض هنا جملة من تعريفات بعض الأعلام لنرى كيفيّة اشتمالها على القيود الثلاثة كلًا أو بعضًا.

1. «الدين: الإيمان بخالق الكون والإنسان وبالتعاليم والوظائف العمليّة الملائمة لهذا الإيمان»[1]:

نلاحظ أنّ الشيخ اليزدي دَامَ عِزُّهُ قد أخذ في تعريفه للدين المعيار والضابط الذي أشرنا إليه، ولكنْ ليس بجميع قيوده الثلاثة؛ وإنّما التعريف المذكور يشتمل على قيدين؛ هما: القيد الأوّل والثالث؛ بحسب الترتيب المتقدّم. فقد خلا التعريف عن قيد مطابقة الاعتقاد للواقع، مع أنّه يعدّ قيدًا مهمًّا وجوهريًّا في حقيقة الدين؛ فإنّه يوجد في كلّ دين البعد الاعتقاديّ، غير أنّ هذا الاعتقاد تارة يكون مطابقًا للواقع، وطورًا لا يكون مطابقًا للواقع. فالأديان البدائيّة والقديمة كانت تتّسم بصفة الاعتقاد والبعد الايمانيّ، غير أنّ هذا وحده لم يكن كافيًا للحكم على واقعيّتها وثبوت أصالتها. فإنّ افتقاد تلك المعتقدات المطابقة للواقع أفقدها صفة الواقعيّة، وسلب عنها خصوصيّة الأصالة. فلذلك نجد أنّه قد طرأ عليها الكثير من التحوّلات والتبدّلات، وكانت النتيجة المترتّبة على تلك التحوّلات تغيّر تلك الأديان وعدم ثباتها، بل فناء أكثرها وأفولها.

(1) اليزدي، محمد تقي: دروس في العقيدة الإسلاميّة، ط8، بيروت، دار الرسول الأكرم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، 1429هـ.ق/ 2008م، ص21.

2. ما ذكره الشيخ اليزدي قدس سره نفسه، بعد أنْ قسّم الأديان إلى قسمين: الأديان الباطلة والحقّة. فقال في تعريف الدين الحقّ: «الدين الحقّ عبارة عن المبدأ الذي يشتمل على المعتقدات الصحيحة المطابقة للواقع. والتعاليم والممارسات التي يدعو إليها تملك رصيدًا كافيًا لصحّتها واعتبارها»[1].

إذا لاحظنا التعريف المذكور نجده يحتوي على القيد المفقود في التعريف الأوّل؛ وهو مطابقة الاعتقاد للواقع، ومن هنا يعتبر التعريف الثاني مكمّلًا للأوّل.

3. تعريف أورده الشيخ جوادي آملي؛ وهو أنّ: «الدين عبارة عن مجموعة من العقائد المطابقة مع الواقع، والأحكام العمليّة والأخلاقيّة التي لها دور وتأثير في إيصال الإنسان إلى الكمال والسعادة الحقيقيّة»[2].

يحتوي هذا التعريف على القيود الثلاثة التي يتكوّن منها المعيار والضابط الذي حدّدناه في تعريف الدين؛ فإنّ عبارة (مجموعة من العقائد) ناظرة إلى القيّد الأوّل. وقد بيّن الشيخ جوادي آملي هذه العبارة بعد ذكره التعريف، حيث قال: «وتعتبر العقائد أساس الدين، ويمثّل التوحيد أهمّ الأصول الاعتقاديّة»[3].

وعبارتا (المطابقة مع الواقع) و(الأحكام العمليّة والأخلاقيّة) تعبّران عن القيدين الثاني والثالث.

4. تعريف آخر أورده الشيخ جوادي آملي؛ وهو أنّ: «الدين مجموعة عقائد وقوانين ومقرّرات؛ بما هي ناظرة إلى البنى التحتيّة لرؤى الإنسان من جهة، وإلى أصل ميوله ونزوعه من جهة أخرى، ومن ثالثة تستوعب الأخلاق والشؤون الحياتيّة»[4].

(1) اليزدي، دروس في العقيدة الإسلاميّة، م.س، ص21.
(2) زاده، محمد حسين: مدخل في نظريّة المعرفة وأسس المعرفة الدينيّة، ترجمة: حيدر الحسيني، ط1، القطيف، دار الهدى للدراسات الحوزويّة، 1434هـ.ق/ 2013م، ص90.
(3) م.ن، ص.ن.
(4) جوادي آملي، عبد الله: حقيقة الدين، ترجمة: عادل لغريب، ط1، بيروت، مؤسّسة العرفان للثقافة الإسلاميّة، 1436هـ.ق/ 2015م، ص15.

يحتوي هذا التعريف على قيدين من القيود الثلاثة؛ وهما: قيدا الاعتقاد، والتعاليم المتلائمة مع ذلك الاعتقاد. وتشير إلى هذين القيدين الفقرة الأولى من التعريف (مجموعة من عقائد وقوانين ومقرّرات). وأمّا ما تبقّى من فقرات التعريف فهي إشارة إلى مهمّة الدين ووظيفته تجاه الإنسان؛ وهي تنظيم شؤونه الحياتيّة وتلبية حاجاته. وقد خلى التعريف عن قيد مطابقة تلك المجموعة من العقائد مع الواقع، مع أنّ واقعيّة الدين وأصالته تشير إلى ضرورة وجود هذا القيد في بيان مفهوم الدين.

5. تعريف آخر أورده الشيخ جوادي آملي -أيضًا-؛ وهو أنّ: «الدين مجموعة عقائد وأخلاق وقوانين ومقرّرات وحيانيّة وعقليّة، وُضعت في متناول الإنسان لإدارة الفرد والمجتمع البشريّ وتربيّته»[1].

ويتضمّن هذا التعريف عبارتان يمكن أن نستوحي منهما قيد (مطابقة تلك العقائد مع الواقع)؛ وهما: قوله: (وحيانيّة وعقليّة)؛ فإنّهما صفتان لقوله (مجموعة عقائد وأخلاق وقوانين ومقرّرات)؛ فالعبارتان تعطيان صفة الواقعيّة وخصوصيّة الأصالة لتلك المجموعة من المعتقدات والمقرّرات. وهذا يتناسب مع مطابقتها للواقع؛ لأنّ ما كان مصدره الوحي والعقل؛ فإنّه لا شكّ في كونه مطابقًا للواقع.

وكيف كان، فإنّ أهمّ الثمرات التي تترتّب على أخذ القيود الثلاثة معيارًا وضابطًا في مفهوم الدين وحقيقته هو اكتساب هذا الدين صفة الواقعيّة وخصوصيّة الأصالة، ومن أهمّ الثمرات المترتّبة على واقعيّة الدين وأصالته -كما يأتي بيانه- ثباته وصيانته عن التبدّل والتغيّر. ثانيًا: مفهوم التغيّر في الدين:

تحتوي الحقيقة الدينيّة على ثلاثة أركان؛ هي:

1. الإيمان والاعتقاد. وتمثّل المعتقدات ومتعلّقات الإيمان القاعدة والركيزة الأوّليّة لكلّ دين، ويصطلح على هذه المعتقدات باسم (أصول الدين).

(1) آملي، حقيقة الدين، ص15.

2. مطابقة هذا الإيمان والاعتقاد لما هو الواقع والحقّ والصحيح، لا أنْ تكون المعتقدات مطابقة لاعتقاد المعتقد فحسب.

3. الأعمال والسلوكيّات المتلائمة مع هذه المعتقدات. ويمثّل هذا الركن الجانب السلوكيّ والعمليّ. ويصطلح على هذه الأعمال والقوانين اسم (فروع الدين).

وبناءً على ذلك، فإنّ وقوع التغيّر في الدين يتصوَّر على الشكل التالي:

- أن يقع التغيّر في أصول الدين فقط.
- أن يقع التغيّر في فروع الدين فقط.
- أن يقع التغيّر في أصول الدين وفروعه.

ويتصوّر التغيّر في الصور الثلاث على شكلين:

- التغيّر الكلّي؛ بحيث تتغيّر أصول الدين كلّها، أو تتغيّر الفروع كلّها، أو تتغيّر أصول الدين وفروعه جميعها.
- التغيّر الجزئيّ؛ بأن يتغيّر بعض أصول الدين، أو بعض فروعه، أو بعض أصوله وفروعه معًا.

والتغيّر في كلّ هذه الصور على نوع واحد؛ أي على معنى واحد؛ وهو بمعنى التبدّل؛ أي تبديل شيء بشيء آخر، كما تقول غيّرت ثوبي أو غيّرت كتابي أو غيّرت قلمي، أو غيّرت رأيي؛ بمعنى بدّلته.

وعلى هذا إذا فُرض وقوع التغيّر في أصول الدين؛ فإنّ معناه تبديل أصول الدين القائمة في الوقت الحالي بأصول أخرى؛ إمّا كلّها، أو قسم منها؛ كتبديل أصل التوحيد والعدل والنبوّة والإمامة والمعاد بأصول ومعتقدات أخرى دينيّة.

وهكذا إذا فرض وقوع التغيّر في فروع الدين، فإنّ التغيّر فيها يعني

تبديل فروع الدين القائمة والمعروفة في الوقت الحالي بفروع أخرى؛ كتبديل الصلاة بغيرها، أو تبديل الصوم بغيره، أو تبديل الحجّ بغيره.

ولكنّ التساؤل المهم هنا هو: ماذا يتصوّر الشيء الذي سوف يكون بديلًا عن أصول الدين القائمة والمعروفة؟ أي ماذا يتصوّر شيء أنْ يكون بديلًا عن أصل التوحيد، وعن أصل النبوّة أو المعاد؟ وفي مجال فروع الدين ماذا يتصوّر شيء أن يكون بديلًا عن الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو فريضة الحجّ؟

بناءً على هذا المعنى للتغيّر في الدين، نتساءل:

هل الدين قابل للتغيّر والتبدّل بالمعنى المذكور؟

وهل هذا التغيّر على فرض تسليم وقوعه هو تغيّر ذاتيّ أم عرضيّ؟ وهل هو خارج عن ذات الدين وماهيّته؟

والإجابة عن هذه التساؤلات المطروحة تتوقّف على البحث والتحقيق في أصل نشأة الدين وإثبات واقعيّته أو عدم واقعيّته.

إذا أثبتنا من خلال التحقيق واقعيّة الدين وأصالته وتجذّره وتأصّله في الحياة الإنسانيّة والحقيقة البشريّة تكون النتيجة والثمرة التي تترتّب على هذا التحقيق عدم إمكان وقوع التغيّر في الدين.

أمّا إذا ثبت لنا أنّ الدين عبارة عن حالة طارئة على الحياة الإنسانيّة؛ فالنتيجة التي تترتّب على هذا إمكان وقوع التغيّر في الدين؛ لأنّ الحالات العارضة على الحياة الإنسانيّة في حالة تبدّل وتغيّر دائم.

ثالثًا: أهمّ النظريّات المطروحة في نشأة الدين:

1. الخوف من الموت والحوادث الطبيعيّة المخيفة:

المصدر الحقيقيّ لهذه النظريّة تفسير طائفة من علماء الاجتماع والنفس لظاهرة الدين بالعامل النفسيّ.

وقد أشار إلى هذا العامل (ويل ديورانت) في قصّة الحضارة، حيث قال: «الخوف؛ كما قال (لوكريش) أوّل أمّهات الآلهة، وخصوصًا الخوف من الموت، فقد كانت الحياة البدائيّة محاطة بمئات الأخطار، وقلّما جاءتها المنيّة عن طريق الشيخوخة الطبيعيّة، فقبل أن تدبّ الشيخوخة في الأجسام بزمن طويل، كانت كثرة الناس تقضي بعامل من عوامل الاعتداء العنيف أو بمرض غريب يفتك بها فتكًا. ومن هنا لم يصدّق الإنسان البدائيّ أنّ الموت ظاهرة طبيعيّة وعزاه إلى فعل الكائنات الخارقة للطبيعة، وتعاونت عدّة عوامل في خلق العقيدة الدينيّة منها الخوف»[1].

وقال في مصدر آخر: «ويبدو -لأنّنا نخمّن لا أكثر، أو نردّد ما قاله (بترونيوس) الذي ردّد ما قاله (لوكريشيوس) أنّ الخوف هو الذي خلق الآلهة في البداية، الخوف من القوى المخبوءة في الأرض والأنهار والمحيطات والأشجار والرياح والسماء. وهكذا صار الدين العبادة الاستعطافيّة لهذه القوى عن طريق القرابين والتضحية والتعاويذ والصلاة»[2].

2. الجهل بعلل الظواهر الطبيعيّة:

اتّجهت فئة من المادّيّين في تحليلهم لنشأة الدين إلى فرضيّة أخرى؛ مفادها: أنّ الإنسان البدائيّ عندما واجه الحوادث والظواهر الطبيعيّة الكونيّة؛ كالزلازل، والسيول، والكسوف، والخسوف، وشروق الشمس وغروبها، ونزول المطر، ولم يعرف عللها الطبيعيّة وأسبابها التكوينيّة؛ اتّجه نتيجة هذا الجهل إلى اختراع فاعل ومُوجد لها، واعتبره العلّة الوحيدة والمباشرة لكلّ تلك الحوادث الطبيعيّة، وسمّى هذا الفاعل المباشر بالإله. وقد أشار إلى هذا العامل أيضًا (ويل ديورانت) بقوله: «تعاونت عدّة

(1) ديورانت، ول وايريل: قصة الحضارة، ترجمة: زكي نصيب محمود، بيروت، دار الفكر، 1408هـ-ق/ 1988م، ج1، ص99-100.

(2) ديورانت، ول وايريل: دروس التاريخ، ترجمة: علي شلش، ط1، القاهرة، دار الجميل، 1993م، ص90.

عوامل على خلق العقيدة الدينيّة... منها الدهشة لما يسبّب الحوادث التي تقع مصادفة، أو الأحداث التي ليس في مقدور الإنسان فهمها»[1].

3. الدين أفيون الشعوب:

عندما لاحظ الإنسان -ولا سيّما الذي يُعدّ من الطبقة المحرومة المستضعفة- ما يجري حوله من ظلم واضطهاد.. آمن بفكرة التديّن والاعتقاد بوجود الخالق والإله، ولجأ إلى المفاهيم الدينيّة لتسلية نفسه، وتسكين آلامه النفسيّة. وأخذ يتوجّه نحو الدين والإيمان بموجود أعلى ليقوم بتخدير نفسه. وهذا معنى (الدين أفيون الشعوب). وهذه العبارة من كلمات (كارل ماركس) التي تمثّل وجهة نظره تجاه الدين[2].

التحقيق في النظريّات المذكورة:

ترد إشكالات عدّة على النظريّات المتقدّمة؛ أبرزها:

- إذا بنينا على النظريّات المذكورة في نشأة الدين، يلزم من ذلك الإقرار، ليس فقط بوقوع التغيّر في الدين، بل إمكان زوال الدين من أساسه وانعدامه؛ بزوال تلك العوامل والأسباب وانعدامها؛ لأنّ العوامل المذكورة تبيّن أنّ الحاجة إلى الدين ليست حاجة دائمة وثابتة، بل اقتضتها ظروف معيّنة.
- إذا كان ظهور الدين في المجتمعات البشريّة راجع إلى العلل والأسباب المذكورة لكان الكثير من الشعوب والمجتمعات البشريّة المتديّنة قد تخلّت عن التديّن؛ لزوال تلك العلل والعوامل، ولا سيّما عامل الخوف من الموت، والخوف من الحوادث الطبيعيّة الغريبة والمرعبة، أو الجهل بعلل الظواهر الطبيعيّة.

(1) ديورانت، دروس التاريخ، م.س، ص100.
(2) انظر: متولي، عبد الحميد: الإسلام ومبادئ نظام الحكم في الماركسيّة والديمقراطيّة الغربيّة، القاهرة، منشأة المعارف الإسلاميّة، 1976م، ص322؛ نورة، بوديلمي: الدين عند كارل ماركس، الجزائر، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2016-2017م، ص20.

كما أنّ العديد من الشعوب التي انتفضت ضدّ حكوماتها الظالمة؛ سعيًا للحصول على حقوقها المشروعة، ولم تستسلم للطبقة الحاكمة، بقيت متمسّكة بدينها واعتقادها بوجود الخالق.

- إسناد ظاهرة الدين والتديّن إلى عامل الخوف أو الجهل أو غيره من العوامل المزعومة يعتبر إساءة كبيرة للعديد من العظماء والشخصيّات الكبيرة والمفكّرين الذين شهد التاريخ وما زال يشهد وقوفهم إلى جانب الدين والمتديّنين والدفاع عن قضيّة الدين والتضحية بكلّ ما يملكونه من الغالي والنفيس. وفي مقدّمة هؤلاء العظماء والشخصيّات: الأنبياء والرسل وأوصيائهم وصحابتهم الفضلاء والعلماء وغيرهم.

فعامل الخوف أو الجهل أو الشعور بالمظلوميّة والاستسلام أمام الطبقة الحاكمة؛ كلّها عناوين منتفية في حقّ هؤلاء العظام.

- ما ذُكِرَ من العوامل في نشأة الدين والتديّن لا يعدو عن كونه مجرّد افتراضات وتحليلات وتخمينات غير موضوعيّة لا تفيد إلا الظنّ؛ فإنّ أصحاب هذه الآراء والنظريّات لم يدرسوا الدين والحالة الدينيّة دراسة موضوعيّة بعيدة عن الخلفيّات والقبليّات[1].
- هل اعتناق أكثر من مليار ونصف مليار نسمة الدين الإسلاميّ في العالم جاء نتيجة الخوف من الموت والقوى القاهرة أو الجهل بعلل وأسباب الظواهر الطبيعيّة؟!
- تثبت الوقائع التاريخيّة أنّ الدين الإسلاميّ قد دخل في القارة الإفريقيّة، وكذلك في الهند، من دون حرب وسلّ سيف، فهل اعتناق الشعوب الإفريقيّة وقسم كبير من الشعب الهندي بالدين

(1) انظر: السبحاني، جعفر: الله خالق الكون، ط1، قم، مؤسّسة سيّد الشهداء العلميّة، 1405هـ.ق، ص29.

الإسلاميّ ناتج عن الخوف من الموت أو القوى القاهرة أو الجهل بعلل الحوادث الطبيعيّة؟

- إذا كان الجهل بحقيقة الظواهر الطبيعيّة وعلل الحوادث الطبيعيّة منشأ للتديّن فلماذا العديد من الباحثين والعلماء العارفين بالحقائق الطبيعيّة وعللها قد اعتنقوا الدين؛ أمثال (كريسي موريسون) صاحب كتاب (العلم يدعو للإيمان).

رابعًا: النظريّة الإلهيّة في نشأة الدين والتديّن:

من الحقائق المتأصّلة في الخِلقة الإنسانيّة الشعور بالوجود الإلهيّ، والتوجّه والميل والانجذاب نحو الإله الخالق، وهذا معنى فطريّة الدين، وأنّ التديّن حقيقة فطريّة. ولترسيخ هذه الفكرة ينبغي أن نبيّن المراد من الفطرة، والأدلّة على فطريّة الدين.

1. مفهوم الفطرة:

الفِطرة بكسر الفاء اسم مصدر من فطر يفطر فطرًا؛ وتعني الخلقة والإبداع والإيجاد. وقد ورد استعمال كلمة الفطرة في القرآن الكريم بصيغ عدّة؛ منها: قوله -تعالى-:

- ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].
- ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2].
- ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾[3].

(1) سورة الأنعام، الآية 79.
(2) سورة هود، الآية 51.
(3) سورة المزمّل، الآية 18.

- ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾[1].
- «وفَطَرَ اللّه الخلق؛ وهو إيجاده الشيء وإبداعه على هيئة مترشّحة لفعل من الأفعال، فقوله: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾؛ إشارة منه -تعالى- إلى ما فَطَرَ؛ أي أبدع وركّز في النّاس من معرفته تعالى، وفِطْرَةُ اللّه: هي ما ركّز فيه من قوّته على معرفة الإيمان»[2].
- و«(فَطَرَ): اللّهُ الْخَلْقَ (فَطْرًا) مِنْ بَابِ قَتَلَ خَلَقَهُمْ وَالْاسْمُ الفِطْرَةُ بِالْكَسْرِ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»، قِيلَ مَعْنَاهُ الْفِطْرَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ والدِّينُ الْحَقُّ»[3].
- و«الفطرة بناء نوع من الفطر؛ بمعنى الإيجاد والإبداع»[4].
- و«الفطرة تعني الخِلقة الأولى؛ أي خلق الروح والنفس ممتزجة مع مجموعة من المعلومات الفطريّة»[5].

2. أدلّة فطريّة الدين:

- أ. قوله -تعالى-: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[6].

(1) سورة الروم، الآية 30.
(2) الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، م.س، ص398.
(3) الفيومي، المصباح المنير، م.س، ص476.
(4) الطباطبائي، محمد حسين: الميزان في تفسير القرآن، ط1، بيروت، دار الأميرة، 1431هـ.ق/ 2010م، ج16، ص161.
(5) الشيرازي، ناصر: نفحات القرآن، مؤسّسة أبي صالح للنشر والثقافة، ج1، ص148.
(6) سورة الروم، الآية 30.

فإذا تأمّلنا في الآية الكريمة بدقّة نجد أنّها تحتوي على أربع نقاط رئيسة مهمّة جدًّا؛ وهي:

- بيان المراد من الفطرة ومفهومها: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾؛ أي تلك الحقيقة والجِبَلة الخَلقيّة التي خُلق الناس عليها.
- أشارت الآية الكريمة إلى أنّ الدين حقيقة فطريّة: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾. دلّت هذه الفقرة من الآية أنّ الدين حقيقة فطريّة فُطر الناس وخُلقوا عليها.
- أكّدت الآية الكريمة على حالة الثبات والدوام والاستمرار للحقيقة الدينيّة؛ فقد نفت بشكل قاطع وقوع التغيّر والتبدّل في الدين، حيث جاء فيها: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾؛ ومعناه أنّه لا تبديل لفطرة الله التي فطر الناس عليها، ومعلوم أنّ الفطرة -هنا- عبارة عن الحقيقة الدينيّة، فعليه يكون معنى: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي لا تبديل ولا تغيير لدين الله، فتنفي الآية الكريمة مسألة إمكان وقوع التغيّر والتبدّل في الدين بشكل قاطع.
- قوله -تعالى-: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾؛ أي هذا الدين النابع من الفطرة البشريّة، وهذا الدين الذي يتّصف بصفة الثبات وعدم التغيّر والتبدّل هو الدين الحقيقيّ، والدين القيّم، والدين الأصيل والواقعيّ.

فالآية الكريمة تعدّ القول الفصل في مسألة النقاش والجدل في وقوع التغيّر والتبدّل في الدين.

ب. أورد الكليني في الكافي هذا الحديث: «**عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ عَنِ ابْنِ أُذَيْنَةَ عَنْ زُرَارَةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ- حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ. قَالَ: الْحَنِيفِيَّةُ مِنَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ- قَالَ فَطَرَهُمْ**

عَلَى الْمَعْرِفَةِ بِهِ. قَالَ زُرَارَةُ وَسَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ الْآيَةَ. قَالَ: أَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَخَرَجُوا كَالذَّرِّ فَعَرَّفَهُمْ وَأَرَاهُمْ نَفْسَهُ وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ رَبَّهُ. وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ يَعْنِي الْمَعْرِفَةَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَالِقُهُ كَذَلِكَ قَوْلُهُ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّه»[1].

وقد تقدّم بيان صاحب مصباح المنير في معنى الحديث الشريف، حيث قال: «**وَقَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ والسَّلَامُ «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ»**، قِيلَ: «**مَعْنَاهُ الْفِطْرَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ والدِّينُ الْحَقُّ**»[2].

ج. ما جاء في كلام أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة في الإشارة إلى أنّ الأنبياء عليهم السلام لم يأتوا بدين غريب إلى الناس غير موجود ومتأصّل في أصل خلقتهم. فقال عليه السلام بعد حديثه عن خلق نبي الله آدم عليه السلام/ واختيار الأنبياء من ولده: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ**»[3].

هذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي اعتُرف له بالعلم والمعرفة والفضل من قبل المسلمين وغيرهم، والذي أُقرّ له في تقرير للأمم المتحدة برئاسة الأمين العام الأسبق (كوفي عنان) بأنّه أعدل حاكم في العالم وعلى مرّ التاريخ. يشير هذا الإمام إلى أنّ الأنبياء والرسل كان دورهم تبليغ الدين إلى الناس وتذكيرهم هذه الحقيقة المتأصّلة في خلقتهم.

(1) الكليني، محمد بن يعقوب: أصول الكافي، ط1، بيروت، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، 1426هـ.ق/ 2005م، ج1، ص336.

(2) م.ن.

(3) أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب عليه السلام: نهج البلاغة، جمع واختيار: الشريف الرضي، ط3، إيران، مؤسّسة دار الحديث العلميّة الثقافيّة، 1426هـ.ق/ 1384هـ.ش، ص26.

د. ما جاء في جواب الإمام الصادق عليه السلام عن سؤال سائل سأله عن دليل يثبت له وجود الإله والخالق.

«قَالَ رَجُلٌ للصَّادِقِ عليه السلام: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّه دُلَّنِي عَلَى اللَّه مَا هُوَ فَقَدْ أَكْثَرَ عَلَيَّ الْمُجَادِلُونَ وَحَيَّرُونِي. فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّه هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَهَل كُسِرَتْ بِكَ حَيْثُ لَا سَفِينَةَ تُنْجِيكَ وَلَا سِبَاحَةَ تُغْنِيكَ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَيْئاً مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ؛ حَيْثُ لَا مُنْجِيَ، وَعَلَى الْإِغَاثَةِ؛ حَيْثُ لَا مُغِيثَ»[1].

لقد أوصل الإمام عليه السلام هذا الرجل إلى اليقين بوجود الله الخالق عن طريق الرجوع إلى أصل فطرته التي يحسّ ويشعر بها بالوجود الإلهيّ، ولا سيّما في أوقات الشدائد.

هـ. أقوال بعض المفكّرين:

- ما ذكره المفكّر الإسلاميّ الشهيد مرتضى مطهّري، حيث قال: «الدين حاجة فطريّة وشعوريّة للبشر، وكذلك هو الوسيلة الوحيدة لإشباع الحاجات الفطريّة للبشر، بحيث لا يمكن لغيره أن يحلّ محلّه... ويستحيل على أيّ شيء أن يقوم مقام الدين في إرضاء هذه الرغبات»[2].
- ما ذكره البروفسور ألكسيس في بيان حقيقة الدعاء وآثاره بقوله: «إنّ البسطاء من الناس يشعرون بوجود الله ولطفه بهم شعورًا طبيعيًّا؛ كما يشعرون بالدفء الصادر عن الشمس والعطر المتضوّع من الزهر»[3].

(1) ابن بابويه، محمد بن علي: معاني الأخبار، تحقيق: علي أكبر غفاري، قم، مركز النشر الإسلاميّ التابع لجماعة المدرّسين بقم المقدّسة، 1403هـ.ق، ص4-5.
(2) مطهّري، مرتضى: مقالات إسلاميّة، ط1، الكويت، مكتبة الألفين، 1403هـ.ق/ 1983م، ص28.
(3) كاريل، الكسيس: الدعاء، ترجمة: محمد كامل سليمان، دار المرتضى، ص31.

- ما يظهر من كلام (ويل ديورانت)، حيث قال: «ثمّة درس من دروس التاريخ يتمثّل في أنّ الدين متعدّد الأرواح، دائب النشور والبعث. فما أكثر المرّات التي تصوّر فيها الناس موت الإله والدين في الماضي، ثمّ بعثًا وتجدّدًا»[1].

كلام (ديورانت)، وإنْ كان ناظرًا إلى حالة التديّن عند أهل الأديان البدائيّة والأديان القديمة، غير أنّه يوجد فيه ما يشير إلى تجذّر ظاهرة التديّن عند الناس.

خامسًا: النتائج المترتّبة على فطريّة الدين:

1. التلازم بين ثبوت الحقيقة الإنسانيّة وثبوت الحقيقة الدينيّة:

الإنسان والتديّن حقيقتان متلازمتان لا تنفكّ إحداهما عن الأخرى، لذلك نجد أنّ أوّل إنسان وُجِدَ على وجه الأرض كان نبيًّا.

- قال البروفسور (ألكسيس كارل) في الإشارة إلى ثبوت التلازم بين الإنسان والدين: «إنّ الإنسان بحاجة إلى الإيمان والروحانية؛ كمثل حاجته إلى الأكسجين، فمثلما لا يستطيع أن يعيش بلا أكسجين كذلك لا يستطيع أن يعيش طمأنينة روحانيّة. إنّ الإنسان بحاجة ماسّة لوجود الله أكثر من حاجته لاستنشاق الأكسجين للمحافظة على جذوة الحياة»[2].

2. عدم محدوديّة العلاقة بين الإنسان والدين:

إنّ العلاقة بين الإنسان والدين ليست علاقة محكومة بظروف زمانيّة أو مكانيّة أو بيئيّة خاصّة، بل هي علاقة مستمرّة الوجود والتحقّق.

(1) ديورانت، قصّة الحضارة، م.س، ص100.
(2) م.ن، ص81.

3. أصالة الدين:

من أهمّ النتائج التي تترتّب على فطريّة الدين والتديّن: ثبوت أصالة الدين وتجذّره في الخِلْقة الإنسانيّة.

4. ثبات الدين واستحالة وقوع التغيّر والتبدّل فيه:

فعندما نقول بامتناع وقوع التغيّر في الدين لا نقصد المعتقدات وأصول الدين فقط، بل الفروع أيضًا.

إشكال: يُشكَل على هذا الكلام بأنّ كثيرًا ما نجد في بعض الموارد والحالات وقوع التبدّل في الأحكام الدينيّة؛ بحيث يتحوّل بعض المباحات إلى المحرّمات، وبعض المحرّمات إلى المباحات، وبعض المستحبّات إلى الواجبات، وهكذا. أو ليس هذا تغيّر وتبدّل في الدين وفي الحقيقة الدينيّة؟ أو ليست حركة الاجتهاد التي نشاهدها في العديد من المدارس الدينيّة الإسلاميّة -وفي مقدمتها الحركة القائمة عند فقهاء مدرسة الإماميّة- دليلًا واضحًا على وقوع التغيّر والتبدّل في الدين، ولا سيّما في الفروع؟

الجواب عن الإشكال:

- ما ذُكِر في تحوّل بعض المباحات إلى المحرّمات، وبعض المحرّمات إلى المباحات، وبعض المستحبّات إلى الواجبات صحيح في حدّ ذاته وواقعه، لكنّ هذا في الحقيقة ليس تبدّلًا أو تغيّرًا في واقع الدين بما هو دين، بل الذي تبدّل هو عناوين وموضوعات الأحكام من الحلال والحرام والوجوب والاستحباب والكراهة والإباحة؛ أمّا هذه الأحكام بالذات فهي ثابتة ودائمة. فعندما يتبدّل عنوان الحكم من مصلحة إلى مفسدة، أو من مفسدة إلى مصلحة يتغيّر الحكم ويتبدّل. فتغيّر الحكم الشرعيّ إنّما هو تبعًا لتغيّر موضوعه، وإنْ كان حاصلًا وواقعًا في حدّ ذاته، غير أنّنا إذا أمعنا النظر في

المسألة نجد أنّ هذا ليس تغيّرًا وتبدّلًا في واقع الدين وحقيقته، بل هذا النوع من التغيّر يعتبر أساسًا من أسس الدين وحقائقه؛ وهو ما يصطلح عليه في علم الفقه وأصول الفقه بالأحكام الأوّليّة والثانويّة. فمسألة الأحكام الأوّليّة والثانويّة من المسائل الدينيّة ومن ضمن المنظومة الدينيّة في الواقع، وليست خارجة عن حقيقة الدين الذي جاء به الأنبياء عليهم السلام.

هذا النوع من التغيّر لا يصدق عليه تغيّرًا حقيقيًّا في الحقيقة الدينيّة، بل هو جزء من المنظومة الدينيّة.

- على فرض التسليم والقبول بأنّ هذا النحو من التبدّل والتغيّر يصدق عليه عنوان التغيّر؛ فإنّه يعتبر تغيّرًا عرضيًّا للدين في مجال فروعه، وليس تغيّرًا ذاتيًّا وحقيقيًّا. وهناك فرق بين وقوع التغيّر في الدين بالذات، وبين وقوع التغيّر فيه بالعرض.

وقد أشار إلى هذه النقطة آية الله الشيخ عبد الله جوادي آملي أثناء مناقشته مسألة حقيقة الدين وإثباته واقعيّته ووحدته وثباته وأبديّته؛ حيث قال: «حقيقة الدين واحدة تظهر مراحلها النازلة أحيانًا، وتنزل مراتبها الوسطى أحيانًا أخرى، وأحيانًا ثالثةً تتجلّى مقاماتها العليا، لتبلغ أوجّها بقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾. وإذا كانت هناك بعض التغيّرات التي تطرأ على فروع الدين؛ بفعل مقتضيات الزمن، إلا أنّ الأصول والكلّيّات تبقى في حلٍّ من ذلك كلّه. وبعبارة أخرى؛ الدين واحد ثابت وأبديّ»[1].

إشكال: القول إنّ الدين حقيقة واقعيّة ثابتة وأصيلة لا يقع فيه التبدّل والتغيّر يتنافى مع كثرة إرسال الرسل وبعثة الأنبياء عليهم السلام؛ فإنّ تعدّد الأنبياء دليل على تعدّد الأديان وكثرتها، وتعدّد الأديان وكثرتها دليل على

(1) آملي، حقيقة الدين، م.س، ص58.

أنّ الحقيقة الدينيّة دائمًا في حالة تبدّل وتغيّر.

الجواب عن الإشكال: لا ننكر تعدّد إرسال الرسل عليهم السلام وبعثة الأنبياء عليهم السلام الذين كانوا يحملون شرائع سماويّة متعدّدة، لكنّ ذلك لا يعني البتّة أنّ الدين عبارة عن حقائق متعدّدة ومتكثّرة قد وقع فيها التغيّر والتبدّل، بل الدين حقيقة واحدة ثابتة أصيلة، لكنّ تجلّيات هذه الحقيقة وتكاملها كانت على مراحل ودرجات. فقد كانت وظيفة جميع الرسل والأنبياء عليهم السلام ومهمّتهم هي الدعوة إلى هذه الحقيقة وبيانها. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1].

وقد تحدّث السيّد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره عن فلسفة تعدّد الأنبياء بعنوان (التغيير والتجديد في النبوّة)؛ وأشار إلى أربعة عوامل؛ هي:

- أنْ تكون النبوّة قد استنفدت أغراضها واستكملت أهدافها المحدّدة بظروف زمانيّة ومكانيّة خاصّة لمجتمع خاصّ؛ بأنْ تكون هذه النبوّة جاءت بوصفة لمرض طارئ في المجتمع الإنسانيّ من الناحية الفكريّة والروحيّة. ولا شكّ أنّ وصفة مرض كهذه لا تكون صالحة لعلاج كافة أمراض المجتمع في كلّ زمان ومكان، فلا بدّ من تجدّد النبوّة[2].
- أنْ لا يبقى تراث للرسالة والنبوّة التي جاء بها النبي المرسل صلى الله عليه وآله وسلم، ويتصوّر ذلك في فرض موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم مثلًا، وتعرّض الشريعة التي جاء بها للتحريف، فتبقى هذه النبوّة حينئذ بلا قيمة، ولكي تستمرّ المسيرة الإصلاحيّة في المجتمع لا بدّ من تجدّد النبوّة[3].
- أنْ يكون السبب في تجدّد النبوّة محدوديّة شخصيّة النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛

(1) سورة النحل، الآية 36.
(2) انظر: الصدر، محمد باقر: أهل البيت عليهم السلام تنوّع أدوار ووحدة هدف، تحقيق: عبد الرزاق الصالحي، ط2، قم، دار الهدى، 1427هـ.ق/ 2006م، ص33.
(3) انظر: م.ن، ص36.

لجهة قابليّته في تلقّي الوحي، وقابليته في تحمّل مسؤوليّة هداية المجتمعات؛ فقد يكون نبيًّا لديه قابليّة أن يتحمّل مسؤوليّة وهموم عصره فقط، أو قريته فقط، أو أسرته وأهله فقط[1].

- أنْ يكون السبب في تجدّد النبوّة ناشئًا من طبيعة تطوّر البشريّة، وتكامل نضجه الفكريّ والعقليّ[2].

هذه خلاصة ما ذكره هذا العلم الفذّ عن عوامل التجديد والتغيير في النبوّة. وإذا ما تأمّلنا في هذه العوامل لا نجد فيها إشارة إلى أنّ منشأ التغيّر والتجدّد في النبوّة هو التغيّر والتجدّد في حقيقة الدين؛ فإنّ العوامل التي استعرضها لجهة تجدّد النبوّة ليست ناشئة من ذات الدين وماهيّته، بل هي راجعة إلى الظروف الزمانيّة والمكانيّة، وطبيعة ذهنيّة المجتمع المخاطَب ومستواه الفكريّ والعقليّ، ونوع المرض الفكريّ والروحيّ الذي تعانيه الأمم التي بُعث إليها الأنبياء والرسل عليهم السلام.

خاتمة:

في ختام هذه المقالة نستخلص جملة من النتائج؛ وهي:

1. استعملت كلمة الدين لغةً في معانٍ عدّة؛ أهمّها: التعبّد - الخضوع والتذلّل - الطاعة والجزاء - الملّة. أمّا اصطلاحًا فقد تعدّدت التعاريف الاصطلاحيّة لكلمة الدين، وتنوّعت الرؤى واختلفت الآراء والأفكار في حقيقة الدين ومنشأه، إلى درجة أنّ بعض الباحثين يرى أنّ كلمة (الدين) على الرغم من كونها من أكثر الكلمات والمصطلحات تداولًا، غير أنّه قد جعلت لها معانٍ متعدّدة؛ بحيث يصعب العثور على تعريف جامع لها.

(1) انظر: الصدر، أهل البيت عليهم السلام تنوّع أدوار ووحدة هدف، م.س، ص40.
(2) انظر: م.ن، ص43.

2. انطلاقًا من واقعيّة الدين وأصالته ينبغي أنْ يكون المعيار والضابط الذي يؤخذ في مفهوم الدين وبيان حقيقته مشتملًا على ثلاثة أركان رئيسة؛ هي: الإيمان والاعتقاد بوجود الخالق - مطابقة هذا الإيمان للواقع - العمل والسلوك الملائم لهذا الإيمان والاعتقاد.

3. يتصوّر وقوع التغيّر في الدين على ثلاثة أنواع: وقوع التغيّر والتبدّل في فروع الدين فقط، وقوع التغيّر في أصول الدين فقط، وقوع التغيّر والتبدّل في الأصول والفروع معًا. وعلى فرض حصول هذا التغيّر فمنشأه إمّا من ذات الدين نفسه دون وجود عوامل وأسباب خارجيّة، وإمّا أن يكون بأسباب وعوامل خارجيّة فقط، أو يكون منشأ التبدّل والتغيّر في الدين كلا العاملين الذاتيّ والعرضيّ.

4. إنّ الدين حقيقة فطريّة، والفطرة؛ بمعنى نوعيّة الخِلقة الإنسانيّة، ويترتّب على فطريّة الدين أصالته وواقعيّته، وكذلك ثباته وامتناع وقوع التغيّر والتبدّل فيه.

5. إنّ تغيّر بعض الأحكام؛ كتبدل بعض المباحات إلى محرّمات، أو العكس، أو تبدّل بعض المستحبّات إلى واجبات، أو العكس، لا يخدش في القول بأصالة الدين ووحدته وثباته. وكذلك الأمر في تغيير النبوّات وتجدّد إرسال الرسل والأنبياء عليهم السلام؛ لأنّ ذلك واقع في سياق مراحل تجلّيات الحقيقة الدينيّة وتكاملها.